وفي يده قنديل أشعل به شعورهم وذقونهم . وأخيراً عراهم من ملابسهم وأمرهم بأن ينبطحوا على الأرض صفاً واحداً وهو ينوي أن ينزل بهم بدون شك نوعاً من عقاب رهيب ، ولكن رسولاً وصل في هذه اللحظة مستعجلاً من موسكو يحمل خبراً بأن الكريملين كان يحترق وأن ناقوس التبريكات قد سقط وتحطم على الأرض . فنسي القيصر ضحاياه وهرع بأقصى سرعته في اتجاه موسكو .

كانت موسكو يزداد اتساعها في كل عام ويمتد وتمثل للعين تكتلاً واسعاً من الأبنية والإنشاءات من خشب التنوب(*) من بيوت صغيرة واسيجة وبلاط شوارع وزرائب وكان بعض كنائسها مبنياً من الحجر . وكانت المدينة في تلك اللحظة تلتهب كما تفعل غابة امسكت بها النار في صيف جاف . والسبب في ان حرائق مطلع نيسان ابريل كانت قد وفرتها هو ان الثلج كان لا يزال فوق الأسطحة . وكان احد هذه الحرائق رهيباً لدرجة انه دمر دكاكين حي كيتايي غورود المجاور للكريملين وسوّد الشارع الكبير الذي يؤدي الى باب إيلينكا على شاطىء موسكفا المحصن . اما حريق حزيران يونيه الذي بدأ في الأربات وغلف الكريملين فكان أخطر بكثير من كل ما عداه .

كان اللهيب الذي تدفعه ريح العاصفة يندفع الى الأمام مفرقعاً مزمجراً حتى اجتاز الموسكفا وكان النهر ليس أكثر من حفرة بسيطة ، وكان يرسل وهو يتلوى في عاصفة هوجاء من نار انفلتت من عقالها فوق أسوار الكريملين الوردية ذات الشرفات جذوات كانت تسقط على أسطحة القصور والكنائس حتى التهب الجزء الأعلى من كاتدرائية الصعود كما التهب سقف القصر القيصري وسقف كاتدرائية البشارة . اما في الكنائس الحجرية فإن اللهب أتلف الفريسكات والإيقونات ودمر الأستار المقدسة والأبواب . وغدت دار صناعة الأسلحة طعمة للنيران

(*) التنوب Sapin نوع من الصنوبريات — المترجم —